نهاية الدولة

"دراسة في فلسفة التاريخ عند السيد محمد باقر الصدر قدس سره بالمقارنة مع المؤرخين المسلمين"

الأستاذ المساعد الدكتور
متعب خلف جابر الريشاوي
جامعة المثنى - كلية التربية

نهاية الدولة "دراسة في فلسفة التاريخ عند السيد محمد باقر الصدر قدس سره بالمقارنة مع المؤرخين المسلمين"

الأستاذ المساعد الدكتور
متعب خلف جابر الريشاوي
جامعة المثنى ـ كلية التربية

المقدمة:ـ

يعد السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره واحداً من ابرز فلاسفة المسلمين المعاصرين ومن علماء الدين القلائل الذين اقتحموا ميدان الفلسفة بعد العلامة الكبير صدر الدين ألشيرازي (الملا صدرا) دون الالتفات إلى القول المتداول والرائج في الأوساط الدينية (من تفلسف تزندق) لقد ترك لنا الصدر كما هائلا من المؤلفات مثلت عصارة فكره وفلسفته تزيد على أربع وعشرون مؤلفا بين الفلسفة والتاريخ والاقتصاد والاجتماع والتاريخ إلا ان الاسلوب الفلسفي طغى على جميعها وتكاد السمة البارزة في معظم نتاجا ته العلمية.

وقد أغنت تلك المصنفات فلسفة التاريخ كثيرا وأفرد لها حيزا واسعا وربطها بالتفسير الاسلامي للتاريخ من خلال توظيف النصوص القرآنية التاريخية والتي اعتبرها سنن تاريخية لايمكن الحياد عنها وقدم فيها دراسة موضوعية لتفسير القرآن ووظفها وبين اهمية التجربة التاريخية في القرآن. وفي هذا البحث دراسة لفلسفة التاريخ عند السيد الصدر قدس سره وبالذات نهاية الدولة والحضارة حصرا كي لا يأخذ الموضوع أبعاداً و تشعبات تثير الملل عن القارئ او السامع وتفقد بعضا من القيمة العلمية للبحث وكي تكون الصورة أكثر وضوحا وتميزا أجرى الباحث مقارنة بين مفهوم نهاية الدولة عند الشهيد الصدر قدس سره ومؤرخين مسلمين مثلوا عدة اتجاهات وعصور إسلامية وفكرية

مختلفة ووقع اختياره على نماذج من هؤلاء منهم ابن خلدون المؤسس الحقيقي لفلسفة التاريخ بغض النظر عن مواقفه التاريخية المتقلبة حسب الوضع السياسي ومن العصر الحديث المفكر الجزائري مالك بن نبيّ كونه يمثل فكر النهضة العربية والمتأثر برواد الجامعة الإسلامية كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم ولا يبتعد كثير عن المؤثرات الغربية الفرنسية منها كونه عاش فترة الاحتلال الفرنسي وما تركته من آثار على بلده الجزائر ومن المعاصرين أيضاً الدكتور عماد الدين خليل صاحب كتاب التفسير الإسلامي للتاريخ وذو الميول إلى الاخوان المسلمين. عسى ان نوفق في ابراز ولو جزء بسيط من فكر الشهيد الصدر قدس سره.

١ـ منهج الصدر في دراسة فلسفة التاريخ :ـ

انطلق السيد محمد باقر الصدر في دراسته للتاريخ من خلال التأكيد على دور القرآن الكريم وأهمية التجربة التاريخية القرآنية وقيمتها العلمية واعتبرها القضية الحاسمة في حركة التاريخ وقد افرد لهذا الامر بحثا مستقلا اسماه (السنن التاريخية في القرآن الكريم)[١] اذ يعتبر التاريخ جزء من الإنسان ولا ينفصل عنه فيقول(ليس التاريخ منفصلا عن الانسان ومتميزا عنه بل هو متلاحم معه لأن الانسان هو الذي يصنعه ويكونه وهو الذي يتحكم في مجراه ويوجهه الوجهة التي يريد)[٢]. وهو اعطى السيد الصدر حرية واسعة لحركة الانسان ولم يقيده فهو صانع التاريخ وبهذا الغى دور القوى الغيبية وإحالة الامر الى القدرية. او النظرية البطولية وربط ذلك بالمجتمع اذ اعطى المنظور الاجتماعي دورا في ذلك من خلال تحليل ظروف العصر الحاضر وتحديد مشكلاته من زاوية متطلبات الاسلام وتوقعات المستقبل. ولهذا اعتبر المجتمع ليس مجرد ظاهرة مادية فقط بل معنوية ايضا وعقيدة الانسان هي النافذة التي يطل منها على العالم وهي التي تحدد له اسلوب تعامله في المحيط المادي والاجتماعي[٣].

ومن خلال ذلك انطلقت المفاهيم في مسألة العلاقة بين الفلسفة والتاريخ والمجتمع عند سماحته ﷺ إذ اعتمد المنهج التجريبي وربط بين الفلسفة والحياة ثم صاغ فلسفة اجتماعية وسياسية لتغيير الواقع. وكما مر في السطور الاولى جعل السيد الصدر الانسان الفرد والأمة على انها العامل المحرك للتاريخ ومن خلال الادلة والتجارب الواردة في القرآن والتي أطلق عليها السنن. مثل قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ان الإنسان وهو يشاهد آثار الأولين ويقرأ مآل إليه مصيرهم كمشاهد عينية وعقلية لآثار اسلافهم الاقوام الاخرى ويتوجب عليه بعد ذلك استنباط الدروس والعبر لتجاوزا ما وقعوا به من اخطاء وخروج عن طاعة الخالق(٤).

هنا انطلق بمنهج إسلامي ألغى النظرة الاستسلامية والغيبية لإيضاح حركة التاريخ التي وردت في الديانات الاخرى التي سيأتي ذكرها خلال البحث وما جرى عليها من احداث وفي الوقت نفسه تنبيه الانسان والمجتمع الانساني بالمصير المحتوم الذي ينتظرهم لو لم يتعظوا بأخذ العبرة من الاقوام التي سبقتهم(٥). يبدأ التاريخ عند السيد الصدر ﷺ بنظرية الاستخلاف والخلافة في الأرض لأن الله شرف الأرض بخلافة الإنسان عليها وبذلك ميزه عن كل الخلائق وعناصر الكون بأنه خليفة الله في أرضه كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ...﴾ و﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ...﴾ اذن دور الانسان في خلافته للأرض امر الهي محدد بشرط ان يحم بالحق والعدل ولا يتبع الهوى وان هذان الشرطان امانة لا يمكن ان يحملها احد إلا اذا توفرت به تلك الأمور. والإنسان مؤهل لذلك فتحمل أعباء الخلافة بوصفها أمانة إلهية عظيمه ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

الاستخلاف هنا لا يعني الارض المجردة فحسب بل يشمل كل ما للمستخلف سبحانه وتعالى من اشياء تعود اليه والله هو رب الارض وخيراتها ورب الانسان والحيوان والنبات وكل الكائنات التي تنتشر في ارجاء الكون الفسيح وهذا يعني ان الانسان مستخلف على كل هذه الاشياء ومن هنا كانت الخلافة في القرآن الكريم اساسا لبدء التاريخ وأساسا لحكم الانسان على الارض اذ اناب سبحانه وتعالى الجماعة البشرية في الحكم وقيادة الكون وأعماره اجتماعيا وطبيعيا وعلى هذا الاساس تقوم نظرية حكم الناس لأنفسهم وشرعية ممارسات الجماعة البشرية حكم نفسها بنفسها بوصفها خليفة عن الله وهنا تقوم الدولة كمصطلح سياسي في المفهوم الاسلامي. وقد نظمت ادارة الدولة وحسب ما ورد في القرآن بقوانين وردت ضمن السنن التاريخية وفهمها والالتزام بها يؤدي الى تجاوز ما وقع به الاخرون من اخطاء ومخالفات لتلك السنن.

ان هذه التجارب البشرية التي حددها القرآن مشروطة متى تحققت الشروط تحقق الجزاء أي الجزاء من جنس العمل والعكس هو الصحيح وهذه الشروط تبدأ بالإنسان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي ان البناء الروحي والنفسي للإنسان هو القاعدة لبناء مجتمع عقائدي قادر على ادارة الامور وتسيير عجلة البناء. والقائمة ايضا من نظرية الاستخلاف وهذا يعني ان كل انسان ينظر الى اخيه الانسان على انه خليفة مثله ولا يتميز عنه بشيء اطلاقا إلا اذا فقد عقلها وكان مجنونا وما سوى ذلك من العرقية والقومية والإقليمية والجنسية وغيرها من تقسيمات تسود المجتمعات الاسلامية اكثر من غيرها لا تخرج الانسان عن خلافته لله تعالى (كلكم لآدم وآدم من تراب) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

﴿وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فالمقياس الوحيد للتفاضل بين الناس هو التقوى أي الاستقامة والعمل الصالح فقط.

عندما يضع السيد الصدر هذه المعايير يلحقها بضمان آخر لنجاح التجربة وديمومة الدولة والمجتمع ويضع معيار التعاون فهو قضية أساسها الشعور الجمعي واستهداف المصلحة العامة للآخرين بنفس الميزان والوزن وهي تقابل في خط معاكس لعلاقات والاستضعاف والاستغلال ونهب الآخرين والفردية في السعي نحو المكاسب الخاصة والمصالح الشخصية ويعزز ذلك بقوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ هذه المفاهيم لقيام الدولة والمجتمع لا نجدها عند غيره بل نجد نظريات تبتعد كثيرا عن التفسير الإسلامي الذي اعتمد عليه السيد الصدر ﷺ. فعند المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون(٧٣٢-٨٠٨هـ -/١٣٣٢- ١٤٠٦م)نجد ان مفهوم الدولة يأخذ طابعا عرقيا يختلف اختلافا شاسعا عما اشار اليه السيد الصدر فأبن خلدون الغى نظرية الاستخلاف وقال بنظرية العصبية القبلية ورابطة الدم واعتبرها الاساس في بناء المجتمع اول مرة ثم بناء سلطة الدولة التي تقوم على مبدأ القوة والغلبة فيقول هنا (إن أهل العصبية هم عون لصاحب الدولة اثناء قيامها وهم مناوئون له اذا غلب الترف على طبائع اهلها والعصبية تنتج جاها وسلطانا وشرفا. وإذا قويت العصبية ظفرت بالرئاسة لأن صاحب العصبية يستطيع بلوغ هدفه في الملك اذا كافأت عصبيته بقوتها الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من أولياء ألدولة (المقدمة١٣٩).

من هذا يتضح ان ابن خلدون وضع العصبية شرط أساس قيام الدولة والملك ولم يترك للدين دورا سوى ان العصبية اذا اقترنت برسالة سماوية تزداد قوة وتصبح اداة حضارة وبناء لا اداة هدم وتدمير. وهذا يمثل فكر العصور الاسلامية الوسطى وأول اختلاف مع السيد الصدر في البناء.

اما المفكر الجزائري مالك بن نبيّ(١٣٢٢-١٣٩٢هـ/١٩٠٥-١٩٧٣م) عاش الذي عاصر النهضة العربية وتأثر بأفكار روادها كجمال الدين الافغاني ومحمد عبد وعبدا لرحمن الكواكبي وعاش تحت تأثير الاحتلال الفرنسي للجزائر لذا ظهرت على مدوناته تأثره كثيرا بالفكر الغربي الفرنسي تحديدا بحكم سياسة الفرنسة التي اتبعتها فرنسا في الجزائر والتي تجاوزت القرن والربع تقريباً (من عام ١٨٣١-١٩٦٢م) وقد درس فكر الرواد المسلمين واخذ عنهم وتأثر بالفكر الهندي من خلال مفكري الهند كطاغور وغيره وقد شكلت تلك التيارات الفكرية منهج مدرسة مالك بن نبي الحضارية.

اعتمد بن نبيّ في قيام الدولة والحضارة من خلال التاريخ اذ اعتبره مادة التغيير الاجتماعي وكذلك اعتبر ان التاريخ من صنع الانسان نفسه وبهذا فهو لم يأت بجديد وإنما وضعه برؤية تفاؤلية لاهي قدر محتوم ولا قدر اعمى بل جعل مفاتيح التغيير بيد الانسان وإعطاء ثلاثة ابعاد نفسية كونه عاملا نفسيا في بناء حضارة واجتماعية عندما ينظر الى الحضارة على انها مظهر من مظاهر الحياة والفكر الجماعي فيقول في ذلك(دراسة لشرائط نمو مجتمع معين لا يقوم نموه على خصائص الجنس او عوامل السياسة بقدر ما يخضع لخصائصه الاخلاقية والجمالية والصناعية المتوفرة في رقعة تلك الحضارة. صائب٤٠٩) وميتافيزيقية أي بعد كوني أي عند اكتشاف اسبابا خارج محيط المجتمع أي غير منظورة دخلت في تكوين الحدث التاريخي يصبح التاريخ ضربا من الميتافيزيقيا أي ان مجاله الى ما وراء السببية التاريخية. هذا الطابع الميتافيزيقي أتى من تعذر اكتشاف الكثير من الاسباب وهذا قد يدفع الباحث الى تشبيهه بعامل الصدفة التي عبر عنها ابن نبي بالبعد الكوني لتأثره بالفكر الديني. واعتبر ان تطور المجتمع مشروط بهذه الابعاد. وهنا لا يجد المتتبع أوجه التشابه بين نظرية الاستخلاف التي استند عليها السيد الصدر قدس سره في حركة التاريخ وبين الأبعاد التي حددها مالك بن نبي.

عندما ننتقل الى رؤية الاستاذ الدكتور عماد الدين خليل الذي وضع اول دراسة اسلامية علنية من اجل ابراز العوامل المؤثرة في حركة التاريخ استنادا للقرآن الكريم وحملت اسم(التفسير الاسلامي للتاريخ) بين فيها ان جانبا كبيرا من سور القرآن وآياته البينات ينصب على أخطار البشرية بالنذير الإلهي.

وان القرآن الكريم لا يقدم قصصه وصوره ومشاهداته لمجرد ترف ذهني أو إشباع حاجة المؤمنين إلى تلك القصص والمشاهدات. ان القرآن جاء بمعطياته التاريخية تلك من اجل ان يحرك الانسان صوب الاهداف التي رسمها الاسلام ويبعده في الوقت ذاته فردا او جماعات عن المزالق والمتعرجات التي أودت بمصائر مئات الأمم والجماعات والشعوب. (عماد١١) وعلى أي حال ركزت دراسته على استيعاب القرآن لفلسفة التاريخ الذي يبدأ عند الدكتور خليل بتقديم الحدث الاول الواعي في قصة خلق الانسان فيعرض هذا المشهد بتركيب متكامل بما ورد في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ...﴾ أي تتطابق رؤية الدكتور خليل مع رؤية السيد الشهيد في نظرية الاستخلاف مع فارق بينهما وهو ان الدكتور خليل وضع الانسان في صراع بين امرين الخير والشر والعلاقة بين السماء والأرض والمصير الذي تؤول إليه الأمور.

٢ـ نهاية الدولة أو الحضارة:ـ

مصطلح نهاية الدولة أو الحضارة يعني ان هناك مسار معين لتاريخ تلك الدولة يسير باتجاهه أي المصير الذي ستؤول اليه الامور وقد وضع المؤرخ الياباني الاصل والأمريكي الجنسية فرانسيس فوكوياما كتابا بهذا الخصوص

نهاية التاريخ والإنسان الاخير استمد فكرتها خلال حقبة الحرب الباردة وانهيار الكتلة الشيوعية. وأول من افترض هذه النهاية هم اتباع الديانات السماوية واعتبروها الفكرة الغائبة ومنهم أخذها مفكرو عصر الأنوار الأوربي ثم انتقلت إلى عالمنا العربي. وقد ربط اصحاب هذه الفكره الغائبة والعلمانية فيما بعد للتاريخ مدة التاريخ بإحداث فلكية كونية بمعزل عن كل المعاني الدينية كما هو الحال في المجتمعات الريفية والشعبية التي لا زالت افطارها تستمد من الظواهر الطبيعية والفلكية. وكي تتضح الصورة اكثر يمكن ان نستعرض هذه الفكرة عند الديانات اليهودية والمسيحية والوضعية ثم عند المسلمين لتبين اوجه الاختلاف والتشابه بينها.

أ- نهاية الدولة عند اليهود:-

لم تتخذ الديانة اليهودية شكلا محددا من غاية التاريخ وهدفه منذ بداية ظهورها بل ان موقفها طرأ عليه المثير من التغيرات المتعاقبة فرغم انها اكدت على فكرة التوحيد ووحدانية الله التي اتسمت بالنظرة العنصرية الضيقة بادئ الأمر ثم تطورت إلى النظرة اللاهوتية مع مرور الزمان ليغدو الاله ليس مقصورا عليها وإنما للبشر أجمعين (حسن الكرمي٢١٢) وقد قيدت اليهودية الانسان سلبت سلطته على حركة التاريخ ومجرياتها وأصبح تصرفاته مسيرة وليس مخيره وان هناك قانون خلقي ينظم حياة الإنسان وسلوكه من الولادة إلى الموت.(الملاح٩١) كما احتوى التاريخ على الشر لربط اليهود بين التاريخ وفكرة الخطيئة الأولى وان الله سبحانه وتعالى لم يباعد بين ذاته وبين البشر وظل دائما على اتصال بالناس في التاريخ(الملاح٩٢). ان فكرة نهاية التاريخ عند اليهود شابها نوع من الغموض إذ اختلفوا حولها كما اختلفوا قبلها حول التطور فاليهودية حسب اسفار التكوين لم تشر إلى حياة ما بعد الموت ولم ترد في اسفارهم التوراتية عن الخلود في الحياة الاخرة على الرغم من ان المزامير قد

ذكرت ان حياة الانسان الدنيوية قصيرة وفي الوقت نفسه لم تشر او تركز على أي فكرة تتعلق بالدار الاخرة لهذا ليس غريبا ان يجد المتتبع لتاريخ اليهود هذا الاقبال والنزوع نحو الحياة الدنيا وورد ايضا في اسفارهم اعتقادهم بفكرة المنقذ والمخلص او المسيح المنتظر الذي يأتي في اخر الزمان وعلى هذا الاساس ارتبطت نهاية الدولة والحضارة والتاريخ عند اليهود بالفكر الغيبي وان كانت متأخرة بعض الشيء ويبدوا ان هذه الفكرة قد استمدها اليهود من تأثرهم بالثقافة الاسلامية والدين الاسلامي الذي يؤكد على ظهور الحجة المنتظر(عجل الله فرجه) ولكن صاغوها بما يتلائم مع دينهم.

ب ـ نهاية التاريخ عند المسيح:ـ

تعد المسيحية الديانة التوحيدية الثانية بعد اليهودية وقد ارتبط ظهورها بالسيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وقد تعرضت المسيحية الى انشقاقات ومذاهب شتى كان اخرها وليس اخيرها الانشقاق الذي حصل في الكنيسة الكاثوليكية على يد الراهب مارتن لوثر(١٤٨٤-١٥٤٧م) ومن تأثر به بعد ذلك امثال أوليرخ زونجلي(١٤٨٥-١٥٣١م) وجون كالفن(١٥٠٩-١٥٦١م) وظهور الكنسية البروتستانتية ثم الكنسية الانجليكانية وهكذا حال الانشطارات في المسيحية.

تنظر المسيحية إلى حركة التاريخ ضمن محددات تبدأ بالخطيئة الأولى لآدم عليه السلام التي جاءت اثر خروجه من الجنة بسبب عصيان أمر الله واعتبروا ان هذه الخطيئة مستمرة في التاريخ. لذا ركزت على كيفية تجاوز ذلك او من الضروري بعد تلوث البشر بالخطيئة ان يأتي الله سبحانه وتعالى الى البشر بهيئة بشرية وهذا ما يطلق عليه بفكرة التجسد وقد تجسد ذلك ببعثة المسيح عيسى بن مريم والذي قالوا عنه الروح أي روح الله. والتجسد هنا يحصل مرة واحدة في التاريخ ولا يتكرر. ثم تنطلق حركة التاريخ الى الإمام بالسموا نحو

دور السيد المسيح في بث روح التضحية عند اقامة الكنيسة وجمع حواريه الاثني عشر بتأثير وسحر شخصيته وتعاليمه وبقدم نفسه كبش فداء لينقذ مريده ضمن الخطوة الثالثة لحركة التاريخ عند المسيحية وهي فكرة الصلب عندما يصلب على الخشبات ليكفر عند عن اخطاء البشر وليدلل على التضحية لخلاص البشر من الاثام والخطيئة. وكي تتعزز الحركة التاريخية تنتقل الى الخطوة الرابعة وهب البعث والقيامة اذ يقوم المسيح بعد الصلب ليعرج الى السماء ليعطي للبشر دليلا على الخلود. ان التدقيق في دراسة التفسير المسيحي للتاريخ انها دعوة للزهد والتضحية التي جسدها السيد المسيح والدعوة الى غنى النفس والسموا عن الدنيا والصدق والنزاهة والتسامح والسلام ونبذ القوة (كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون) و(ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم وخسر نفسه) إضافة الى دعوتها الزعد في التملك وتفضيل الروح على المادة ثم ربط ذلك بالخلود ونظرت الى التاريخ المؤقت على انه حالة تجمع بين الزوال والنهوض.

ان فكرة نهاية التاريخ او الحضارة عند المسيحية ارتبطت بفكرة عودة المسيح للمرة الثانية أي البعث والقيامة. اذ يعود المسيح الى العالم جالبا معه يوم الحساب وافتتاح مملكة السماء وتحديد الزمان لهذه العودة مرهون بإرادة الله سبحانه وتعالى اما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها احد ألا الله أو ما يصطلح في المسيحية (الاب).

وهكذا فنهاية التاريخ تدور حول المؤقت والابدي فالمؤقت هي الحياة الدنيا والابدي هو الله سبحانه وتعالى والمؤقت هو الطريق الى الابدي. ومن هذا يتضح ان نهاية التاريخ عند المسيح لا تبتعد كثيرا من الفكر اليهودية مع اختلاف قليل لدى المسيحية غغكرة المخلص والمنقذ مشتركة بينهما والاختلاف من المنقذ؟

وقد سار مؤرخي ومفكرو التاريخ على مر العصور في هذه الدوامة من الاختلاف.

ت- نهاية الدولة في الإسلام:-

ظهر الإسلام بعد المسيحية بعدة ستة قرون وحدد اركان الدين ومنهجه بضوء كتاب الله القرآن الكريم وسيرة نبيه محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وعلى آل بيته وسلم) وأصبح القرآن المحور الأساس ونقطة الدوران في التاريخ ولا يمكن للبشرية ان تحصل على هدايتها إلاّ به. ان المنطلق الجوهري للتاريخ في الاسلام هو الله (سبحانه وتعالى فهو خالق التاريخ والحاضر فيه دائما وهو الذي يحدد نهايته في ضوء السنن التاريخية التي ضمنها القرآن. والإسلام في منطلقاته التاريخية يختلف عن الاديان الاخرى لأته ينظر الى حركة التاريخ بالحث على العمل والالتزام بالسنن القرآنية والهدف من هذا هو استمرار العلاقة بين الخالق والمخلوق ويعرض العلاقة بين الانسان والحياة الدنيا بشكل يقوم على التجانس والالتحام ويبعد عن النفور كما هو وارد لدى المسيحية او اليهودية. ويؤكد على ممارسة الفعل القائم على التقوى والعمل الصالح كما نهى عن الاسراف والترف وتجنب خطوات الشيطان والغواية الشيطانية هنا نسبية اذ ترك القرآن مساحات واسعة بين اياته للرجوع عن الخطيئة وطلب المغفرة والتوبة ولم تظهر في الاسلام الدعوة الى الفرار من التاريخ بل العكس دعا الى العمل والابداع ودور الانسان في تجاوز الخطيئة الاولى والصراع بين الخير والشر والعلاقة بين السماء والأرض بل ان القرآن الكريم اشار في كثير من السور للتاريخ باعتباره ماضيا وحاضرا ومستقبلا في تنبؤات يحيطها علم الله. وهي دلالات للتفكير والتبصر الدائم وارشاد الانسان الى الصواب وتجنب الخطأ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ و﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لقد جاءت تعاليم الاسلام جامعة بين

الروحية والاخلاقية والتشريعية أي منظومة كاملة للحياة لم نلحظها لدى الديانات الاخرى.

ان نهاية التاريخ في الاسلام هو شأن الله تعالى ويعتمد على نوعية ومحصلة الفعل البشري في التاريخ الدنيوي لتكون جواز مرور للتاريخ الاخروي والابدي ويبدو من خلال هذا ان الاسلام قد أنفرد بإعطائه صورة اكثر تفصيلا من حيث بداية ونهاية التاريخ والجدوى الاخيرة منه فالتاريخ المؤقت هو الطريق للخلود الابدي.

ث ـ نهاية الدولة عند ابن خلدون:ـ

المقصود بنهاية الدولة يعني سقوطها ونهاية تاريخها وقيام دولة اخرى أي هناك هدف يحرك مسار هذا التاريخ وهذه الفكرة التي اعتقد بها اتباع الديانات السماوية وسار عليها الغربيون نجدها عند ابن خلدون الذي يعزوا نهاية الدولة وسقوطها الى الطبقة الحاكمة او العصبة المتسلطة على ادارة الدولة. فبعد ان يقسم ابن خلدون مراحل عمر الدولة والسلطة بتصوير لا يقوم على اسس دينية وانما على اسس عرقية اجتماعية تقوم على رابطة الدم ويعطي لحركة تاريخ الدول مراحل محددة تتحرك من خلالها ولا يمكن ان تتجاوزها وكأنها كائن حي يولد وينمو ثم يهرم ليفنى وقد حدد عمرها بمائة وعشرون سنة. وهي تتكون من ثلاثة اجيال فيقول (ان الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة اجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر المتوسط فيكون اربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء) المقدمة١٤٨. فالجيل الاول منها يختص بالحياة البدوية الخشنة البعيدة عن الترف والمدن (وابناء هذا الجيل لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون).م١٤٩ص. ان

الوظيفة الاساسية للعصبية هي الدفاع عن القبيلة وهي تقوم مقام الاسوار والجند في المدن فهي ضرورة حياة لا يمكن العيش بدونها.م ص١٢٥. فابن خلدون يرى ان أي دولة او حضارة تبدأ من الصحراء او الريف ثم تنتقل الى المدينة. ويمكن ان يعطى ابن خلدون بعض العذر في هذا التوجه والحكم لأنه عاش في حقبة تاريخية تأثر بها وهي دويلات المغرب والاندلس التي نشأت اساسها العصبية القبلية. ويستطرد ابن خلدون نحو الجيل الثاني ويرسم صورته على النحو التالي هو الجيل الذي يتحقق على يديه الملك والذي يؤسس الدولة فينتقل من الحياة البدوية الخشنة الى الحياة المتمدينة المترفه فيقول(والجيل الثني بالملك والترف من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه ومن عز الاستطاله الى ذل الاستكانه فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهادنة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك) وواضح من النص ان ابن خلدون ربط بين العصبية والحضارة وان الحضارة قد اثرت سلبا على العصبية وانسحب ذلك على الاخلاق فنتيجة الترف ضعفت العصبية وانخفضت الشجاعة والطباع الخشنة لانت وكل هذا حدث نتيجة لوجود الدولة.

وأما الجيل الثالث فينسون عصر البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ بهم الترف غاية بما تبنوه من النعيم ونضارة العيش فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة...فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوما مدافعته. وهنا تدخل الدولة في طور الافول. ان ابن خلدون عندما يحدد عمر الدولة بهذه الاجيال الثلاثة لا يقصد الدولة بمفهومها الحديث وإنما يقصد سلطان الاسرة الحاكمة وهنا

يربط مصير الدولة ونهاية تاريخها بمصير الطبقة الحاكمة وكأن الدول حسب مفهوم ابن خلدون هي الاسر الحاكمة وربط مصير الشعوب والامم بمصير الاسر واعطى لتلك الاسر الدور الكبير في تحريك الاحداث التاريخية متناسيا دور الشعوب في الاصلاح والتغيير وصناعة التاريخ يفوق دور الحكام اضف الى هذا ان الحياة البشرية والنمو السكاني متداخل بعضه مع البعض الاخر ولايمكن الفصل بين الاجيال فالحياة البشرية ليست محصولا زراعيا ينبت وينمو وينضج ويحصد وانما الولادات والوفيات اعدادها تختلف من جيل الى اخر وبأمكان بعض الاجيال خلق المحفزات التي تؤدي الى تجديد حركة التاريخ بتجديد الدماء وبالتالي تمدد من عمر الدولة وعلى رأي ابن خلدون ان كل دولة تقوم تحمل معها بذور نهايتها التي تنضج كلما تقدم عمرها.

ان ما اورده ابن خلدون من نظرة تشاؤمية حول نهاية الدولة نابعة من الحالة الفكرية المتأزمة التي عاشها في حياته فهو سعى وراء الملك في عصر الدويلات والطوائف ولم يحظ بنصيب في منصب او ملك فانصب جهوده الى الكتابة في السنوات المتأخرة في حياته فجاءت افكاره مأزومة كحياته والإنسان ابن البيئة التي عاش بها. لذا لم نر عنده أي فكره لدور الدين والعقيدة والإرادة الإلهية لتحريك عجلة التاريخ.

ج- نهاية التاريخ عند مالك بن نبي:-

يرى بن نبي ان التاريخ ليس مجرد حوادث تتعاقب دونما ربط جدلي بينها بينما هناك فارق بينها وبين النظر اليه باعتباره سيرا مطردا تترتب فيه الحوادث ترتيبا منطقيا كما تترتب عن الاسباب مسبباتها (تأملات١٣٠) وتقوم الحضارة والدولة عنده من عناصر تعتبر المكون الاساس للحضارة (الانسان والتراب والوقت) هذه العناصر الثلاث لا تصنع لوحدها ناتج حضاري فلابد من عارض غير عادي يقوم بالتركيب بينها ولابد لظرف استثنائي لميلاد التركيب

العضوي التاريخي الذي يتفق مع ميلاد مجتمع ذلك هو المركب الحضاري الذي يمثل دائما بالفكرة الدينية وقد وضع ثلاثة ادوار لعمر الحضارة أي الدولة هي دور التكوين والنموّ ودور الامتداد بفعل الدفعة الاولى ودور الضعف والسقوط (صائب١٣١) وهنا يقترب من محاكاة ابن خلدون في الاجيال الثلاث مع الاختلاف بالعمر الزمني لكل دور او جيل ولا عجب في ذلك حسب وجهة نظر الباحث لأنهما خرجا من بيئة واحدة التفكير وان اختلف الزمن.

يبدأ التكوين والنمو الحضاري عندما تكون العلاقات الاجتماعية في اوج قمتها وأكثف حالاتها والتي يعبر عنها بالنص القرآني(كأنهم بنيان مرصوص). ويكون نظام الافعال عند الفرد في اقصى درجات الفاعلية الاجتماعية وهذا هو العصر الذهبي لأي مجتمع وهذه الحركة والديمومة ترفض فيها حالات الكسل والتقاعس كما شهده المجتمع الاسلامي الاول في بدايات تكوين الدولة الاسلامية وفي هذه المرحلة تفرز الحالات السلبية بوضوح وتشخص ويوبخ اصحابها لأن المجتمع اصبح متمسك بالقيم الجديدة للاسلام.

عندما تصل العلاقات الاجتماعية الى هذه المرحلة المتقدمة من النمو تتحقق الحضارة وتشهد مع النمو الحضاري حالة ركود في العلاقات الاجتماعية دون صعود وهنا تبدء الشوائب تتسرب الى داخلها وتبدء تصرفات البعض السلبية تمثل صدمة اجتماعية دون التجرء على مواجهتها وهنا تسير المجتمعات نحو الانحسار في مسارها الحضاري التاريخي ولم يعد صاعدا نحو الأعلى وإنما نحو الاسوء لتبدء المرحلة الثالثة وهي مرحلة الانحطاط ونهاية الدولة التي تأتي نتيجة لتفكك العلاقات الاجتماعية وهبوط المستوى الروحي(فإذا وهنت الدفعة القرآنية توقف العالم الاسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنفذ آخر قطرة من الوقود) وهنا تنتهي الدولة عند مالك بن نبيّ.

ان المتتبع لما ورد من اراء ابن خلدون وابن نبي يجدهما متطابقين في الدورة الثلاثية لعمر الدولة وباختلاف الادوات فابن خلدون وضع العصبية القبلية الاساس في تفسيره الدوري وابن نبي وضع العلاقات الاجتماعية والغرائز ركن اساسي في نظريته والعصبية جزء من العلاقات الاجتماعية وكلا الاثنين جعلا من نقطة محددة في تاريخ الامة الاسلامية مفترقا بين الفكرة الدينية وظهور العصبية وهي معركة صفين(❖) ففي صفين استعادت العصبية القبلية دورها الطبيعي عند ابن خلدون بعد ان تحررت من سلطة الروح الدينية لتكون لها الغلبة وعند ابن نبيّ وجدت الغرائز الاجتماعية فرصتها الى التحرر لتزيح قدرا من السلطة الروحية للدين ليحل محلها العقل والغريزة.

ح- نهاية الدولة عند عماد الدين خليل: -

انطلق الدكتور عماد الدين خليل في تفسيره للتاريخ من منطلق الاسلام واتخذ من القرآن الكريم محورا لتفسير التاريخ استنادا الى المساحات التاريخية الواسعة في السور القرآنية. وهو يبدأ التاريخ بنظرية الاستخلاف كما ورد في الصفحات الاولى للبحث وحدد عدد من المبادئ الأساسية لحركة التاريخ ودور الانسان الخطير في هذه الحركة منها الصراع بين الخير والشر والعلاقة بين السماء والأرض والمصير الذي ستؤول اليه هذه المسائل جميعاً(صائب١٣٤) ان ما يهمنا في هذه السطور ما هي الفكرة التي حملها الدكتور خليل حول نهاية الدولة. افرد في دراسته فصلا كاملا عن سقوط الدول والحضارات ووضع اسبابا عدة لسقوط الدول عزاها الى القرآن الكريم وفق قانون المداولة او تبادل الادوار الحضارية بين الامم بهلاك حضارة وقيام حضارة اخرى استنادا لقوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ان هذه النهاية الحتمية التي آمن بها معظم مذاهب التفسير الوضعي تبرز لدى المسلمون قانون حاسم وخطير وانها ترد في هذا الاطار القرآني تعقيبا

على تجربة المسلمين التاريخية في أحد ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ان القرآن يطرح هذا المقطع التاريخي محذرا ومنذرا عباده من المصير المحتوم الذي ينتظرهم والشواهد كثيرة لا مجال لذكرها.

ركز الدكتور خليل على الاجل الثابت والمحتوم بسقوط الدولة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ان المداولة تعني الحركة الدائمة والاسلام لم يقر الحتمية التاريخية الصارمة وانما الحتمية التفاؤلية عندما يمنح الفرصة للجماعة ان تعيد تنظيم نفسها وتتجاوز اخطاؤها لتعود من جديد او تمارس تجربة اخرى وهذا ما يميز الموقف الاسلامي من سقوط الدول والحضارات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ واكد على حدها السلبي بقوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي ان القرآن يطرح مبدأ التغيير الذاتي مقابل حتمية السقوط والمداولة كوسيلة للاستعادة ولا يقول الاستمرار. ان تأكيد الاسلام على مبدء التغيير في جانبيه السلبي والايجابي يعني اعطاء الحرية الكاملة للإنسان والجماعة البشرية في صياغة المصير التي ترغب فيه.

إن السقوط عند الدكتور خليل يأخذ اتجاهات متعددة سياسية وإدارية واقتصادية وأخلاقية واجتماعية وعقائدية متداخلة مع بعضها فيقول(علينا ان نتذكر ان القرآن لا يطرح تفاصيل وجزئيات ولا لامس الأحداث اليومية العابرة إنما يطرح مبادئ عرضة وقواعد شاملة في مجالات الحياة المختلفة)ص٢٦٥ ففي الجانب السياسي تكون المسؤولية ملقاة على القيادات والقواعد على حد سواء نظرا للعلاقة المتداخلة بين الطرفين وان القيادة لا تمارس دورها الاخلاقي الفاعل الا بقرار ضمني من القاعدة وان ساعة

السقوط تحين يوم يهيمن على القيادة حفنة من المترفين الفسقة والإداريين الظلمة فيمارسون من خلال السلطة كل الاساليب التي من شأنها الحاق التفكك والدمار بالجماعة والأمة التي ارتضت لهم ذلك. ولروع تصوير لهم في القرآن الطواغيت وهم في قمة الجاه والثروة وهذا يعطي نظرية السلطة الظالمة والقاعدة التي تسكت عن الظلم ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ وقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وعن القاعدة يقول تعالى ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ ان هذا الجانب السياسي الخطير هو اول عوامل الهدم في بناء الدولة.

وستطرد الى الجانب الاداري فيذكر ان الظلم والطغيان اذا استفحل في دولة ما انسحب الى الجهاز الاداري ليصيبه التفكك والاضطراب والعجز واذا تفكك الجهاز الإدارة أصيبت الأداة التنفيذية لسياسات الدولة بالشلل والضعف العام الذي ينسحب ايضا على الجانب الاقتصادي للدولة لأن هذا الجانب اذا التصق بطبقة من المترفين سواء كانوا رجال دين او سياسة ادى الى انحرافهم عن جادة الصواب واوجد شريحة من المحرومين والمعدمين واربك توزيع الثروات بنوع من التمايز ادى الانحراف عن الموقف الانساني والاجتماعي وهذا يعني اختفاء العدل وانعدم التوازن وظهر الغنى الفاحش والترف واصبح عامل هدم في كيان المجتمع واصبح الجهلاء من يتصدرون قيادة الامة واصبحت هذه الجماعات تلعب دورا تاريخيا يسير بها الى التفسخ والتدهور والانهيار وبالتالي تسقط الدولة.

إن ما ذهب اليه الدكتور خليل في دراسته وتحليله لهذه المسألة يعطي رؤية إسلامية متفائلة غير ما وجدناه عند ابن خلدون وابن نبي لأن الاسلام يعطي

البديل لحالة الانهيار ويضع محفزات لإعادة الحياة للدولة قبل انهيار. الأمر الآخر الذي خرج به الدكتور خليل في هذا الصدد اعطى اهمية مستمدة من القرآن لدور الطبقة الحاكمة وعلاقتها بالقاعدة وبين انها ان صلحت صلح المجتمع وبالعكس وأعطى للقاعدة خيار السكوت على الطغيان يوجب الفناء والثورة لتغييره يعطي ديمومة للقاعدة دون أن يتجاوز مبدأ العدل والظلم في تطور المجتمع ورقيه نحو المجد.

خ- نهاية الدولة عند السيد محمد باقر الصدر ﷺ :-

إن حركة التاريخ عند السيد الصدر لها غاية اجتماعية وحضارية والحتمية المطلقة في نظره تؤدي بصورة مباشرة الى الغاء دور الارادة الانسانية في عملية التغيير ودمج المعرفة التاريخ بالمعرفة المادية. ورغم تأكيده على التجربة التاريخية وقيمتها والتي تتطابق مع رؤية الدكتور عماد الدين خليل والتي يتبلور من خلالها ان المفهوم القرآني يستند الى ضوابط وسنن تحدد مسار التاريخ وبهذه السنن الغى النظره الغيبية الاستسلامية لتفسير الاحداث ونبه الفكر البشري الى محاولة فهم التاريخ فهما علميا. وقد ربط السيد الصدر نهاية التاريخ بمجموعة من المنطلقات والمفاهيم اولها يبدأ بمفهوم العدل والظلم.

ويلتقي مع الدكتور عماد الدين في مسألة سنن التاريخ بصيغتها الكلية ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فالأمة هنا لها حياة وحركة وموت وقد ربط بين النتيجة والظلم فإذا ازداد الظلم كانت تلك النتيجة الطبيعية له وبنفس الوقت أعطى فرصة للإنسان لأخذ دوره في التغيير نحو الافضل ولا ينظر الى توقف الطاقات الفكرية للبشر. ويتبين من خلال دراساته ان الارض لا تخلوا من احد والدول لا تنتهي وإنما يتحول الظلم في نهاية المطاف إلى عدل وان الأرض ستمتلئ قسطا وعدلا بعد ان

ملأت جورا وان النهاية تكون لسيادة العدل ورفع الظلم والجور متمثلة هذه السيادة بقيام مرتبط بتعاليم السماء امتدادا للأنبياء والأئمة. (بحوث٣) ويعزوا ذلك لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وهنا تبرز ظاهرة أخرى لنهاية الدولة هي الانتظار المرتبط بالنهاية وهو اليوم الموعود الذي يكون فيه ظهور المنقذ والمنفذ للتعاليم السماوية على الأرض الإمام الحجة بن الحسن (عجل الله فرجه) وهنا ينفرد السيد الصدر عن غيره في النهاية اللاحتمية للدولة. ومما يدلل على ان النهاية تفاؤلية هو ان احد اركان الدين الاسلامي هو العدل ولم يكن من الصدف ان يوضع هذا الركن وإنما كان تأكيدا على أهم صفاة الله تعالى في مدلوله العملي ودوره في توجيه المسيرة الانسانية لأن العدل هو الشرط الاساسي لنمو كل القيم الخيرة الاخرى وبدون العدل والقسط يفقد المجتمع المناخ الضروري لتحرك تلك القيم وبروز الامكانيات الخيرة والإنسان بطبعه ميالا للقسط والعدل.

إذن هناك حركة دائبة نحوا قيم الخير والعدل والقوة وهي حركة لا تتوقف لأنها متجه نحو المطلق بمحددات اختطها الله سبحانه لعبادة بدأت بالاستخلاف ووضع سبحانه وتعالى شهداء على البشر يمثلون التدخل الرباني الذي يحافظ على الانسان الخليفة من الانحراف في مسيرته وقد صنف القرآن الكريم الشهداء إلى ثلاثة أصناف فقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ المائدة ٤٤.

وفي ضوء الآية الكريمة أصناف الشهداء تبدأ بالأنبياء والأحبار وهم علماء الشريعة والربانيون وهؤلاء درجة وسطى بين النبي والعالم وهي درجة

الإمام. وعلى هذا الأساس وضع السيد الصدر بموجب القرآن الكريم قائمة الشهادة على البشر أولها الأنبياء وثانيهما الأئمة عليهم السلام الذين يعتبرون امتدادا ربانيا للنبي (صلى الله عليه وعلى آل بيته وسلم) وثالثهما المرجعية الدينية التي تعتبر امتدادا رشيدا للنبي والأئمة في خط الشهادة والشهادة على العموم دورها المشترك بين الثلاث يتمثل:-

١- استيعاب الرسالة السماوية والحفاظ عليها. ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾.

٢- الإشراف على ممارسة الإنسان لدوره في الخلافة ومسؤولية اعطاء التوجيه بالقدر الذي يتصل بالرسالة وأحكامها ومفاهيمها.

٣- التدخل لمقاومة الانحراف واتخاذ كل التدابير الممكنة من أجل سلامة المسيرة.

فالنبي صلى الله عليه وآله هو حامل الرسالة من السماء باختيار الله تعالى له والإمام هو مستودع للرسالة الربانية. والمرجع هو الانسان الذي اكتسب من خلال جهد بشري ومعاناة طويلة الامد استيعابا حيا شاملا ومتحركا للإسلام ومصادره وورعا معمقا يروض نفسه عليه حتى يصبح قوة تتحكم في كل وجوده وسلوكه.

ومن هنا كانت المرجعية مقاما يمكن اكتسابه بالعمل الجاد المخلص لله تعالى خلافا للنبوة والإمامة فأنهما رابطتان ربانيتان بين الله والإنسان ومن هنا كانت المرجعية كخط قرارا الهيا والمرجعية كتجسيد في فرد معين قرار من الامة.

وقد حدد الله سبحانه وتعالى بالشهداء توفر العدالة وقال تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. فكل ممارسة جاهلية أو اشتراك ضمني في ألوان الظلم

والاستغلال تجعل الفرد غير جدير بالعهد الإلهي والمرجعية عهد الهي رباني إلى الخط لا إلى الشخص ومن مواصفاته العالية توفر العدالة بدرجة تصل إلى العصمة كما وصفه الإمام الحسن العسكري عليه السلام (فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفا على هواه مطيعا لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه) ولهذا فالعدالة تقترب من العصمة وحتى هذا المرجع بحاجة إلى شهيد ومقياس موضوعي ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ الحج٧٨.

ومن هنا يمكن القول ان السيد الصدر يقدم رؤية لنهاية الحكومة وليس الدولة ويستمد تصوراته من القرآن الكريم ومع ما جاء في الكتب والأديان السماوية الأخرى التي تتفق على ظهور المنقذ معتبراً أن نهاية التاريخ هي نهاية الحكومات الوضعية وعودة التاريخ المرتبط بالسماء وظهور المنقذ الذي يملأ الأرض قسطا وعدلاً.

وخلاصة القول يمكن القول ان السيد الصدر اختلف مع ابن خلدون في عصبيته القبلية ومع ابن نبيّ في علاقاته الاجتماعية المستمدة من العصبية ذاتها واقترب من الدكتور عماد الدين خليل قي نظرية الاستخلاف والمنقذ الغائب إلا ان الصدر انفرد عنه بتحديد هوية المنقذ دون وضع نهاية للدولة وإنما للحكومة وأعطى دورا للشهداء ممثلة بالمرجعية ولنا في العراق مثالا حيا حول دور ذلك الشاهد في ضبط الامور من الانفلات وحقن الدماء والخطاب المعتدل المتسم بالتوازن بعد سقوط الحكومة وليس الدولة لوجود اختلاف لا داعي للبحث عنه.